الربّ يحبّكم أكثر بكثيرٍ ممّا تحبّون أنفسكم – الجزء الثاني

الأب أثناسيوس السيمونوبيتريتي

ثمّة أمرٌ علينا أن نعرفه: عندما نَجِدُ أبًا روحيًّا، يجب أن نثق به ثقةً تامّة، وأن نكشف له ضعفاتنا الروحيَّة كلَّها ولا نخفي عنه شيئًا على الإطلاق.

هل تعلمون أنَّ أصغر ذرَّة غبارٍ، إذا دخلت حاسوبًا أو قطعةً منه، يمكنها أن تُسبِّب ضررًا كبيرًا؟ يحدث هذا في الحياة الدنيويَّة، لكنَّه يحصل بالأكثر في الحياة الروحيَّة. يجب أن نكون متيقِّظين لكلِّ تفصيلٍ دقيق. علينا أن نعترف بصِدقٍ لأبينا الروحيِّ، مثلما نزور الطبيب ونكشف له أسرارنا الداخليّة. فإنْ لم نُخبِره عن الأهواء التي تُعذِّبنا، كيف له أن يتوصّل إلى التشخيص المناسب ويساعدنا بقوله: "كنْ حذرًا بخصوص هذا الهوى، قُمْ بكذا ولا تفعل كذا!"؟ إذا لم نفتح له قلبنا، فلن يتمكّن من مساعدتنا.

إنّنا لا نقوم بما يجب علينا فعله. نحن منشغلون طيلة الوقت، لكنّنا لا نَصِلُ إلى أيّ مكان. من المهمّ جدًّا أن تثِقوا بأبيكم الروحيِّ ثقةً تامّة. عندما تأتون إليَّ أو تقصدون شيخًا آخر وتعترفون تحت البطرشيل، فإنَّكم تأتون إلى المسيح نفسه. نحن فقط الأيدي التي يستخدمها المسيح، بكلِّ محبّته للبشر، لكي نحصل جميعُنا على خلاصنا.

قلِّلوا انتباهكم إلى العيوب الصغيرة التي قد يمتلكها الأب الروحيّ، وابحثوا عن العنصر الإلهيّ الذي لدى هذا الأب أو الشيخ الذي سلّمتُم أنفسكم له بثقة. كلّما أظهرتُم صدقًا ومحبّةً أكبر لأبيكم الروحيِّ، كرَّسَ هو أيضًا نفسَه أكثر من أجلكم. سيُنيره الروح القدس، وكما نعلم من الناموس الروحيّ، سيُسفِر هذا عن اتِّحادٍ روحيٍّ. إذا عشتُم بهذه الطريقة، ستُلاحظون كيف أنَّ كلام أبيكم الروحيِّ يتردَّد في مسامعكم: "لا تفعلوا هذا الأمر أو ذاك الأمر!".

عيشوا بالطريقة التي أصِفُها لكم الآن، وإذا لم تتسنَّ لكم الفرصة لمراسلتي إلى الجبل المقدّس، فاذكروني في صلواتكم عن بُعد! حاولوا أن تشعروا بمدى عظمة اتِّحاد النفوس! ستشعرون بأمرٍ عظيمٍ يحدث عندما يُصلِّي الأب المعرِّف من أجلكم، وعندما تحفظكم صلواته. يحصل سرٌّ عظيمٌ، أبوَّةٌ وبنوَّةٌ روحيَّة. إذا لم نثِق

تمامًا بأبينا الروحيّ، فإنَّ صراعاتنا الداخلية ستشلُّنا روحيًّا ولن نكون قادرين على القيام بأيِّ شيء. سنُواصِلُ خوض جهادٍ قاسٍ وغير مُثمِر.

يجب أن نسعى أيضًا للحصول على قانون صلاةٍ من أبينا الروحيّ، يكون مناسبًا لقدرتنا. غالبًا ما تأتون إلى أبيكم الروحيّ وتقولون: "أبتاه، أنا خاطئٌ كبير، حدِّد لي قانون صلاةٍ شديد الصعوبة!".

يا أخي، لا أعرف أيَّ قانون صلاةٍ يجب أن أعطيك. جلُّ ما أعرفه هو أنِّي لم أُصَلِّ قبل أن آتي لتقبُّل الاعترافات، ولم أصُمْ في الليلة السابقة، ولم أُقِمْ سهرانيّةً ولم أصنع سجداتٍ لكي ينيرني الله أنا البائس. أتظنُّ فعلًا أنَّه يمكنني أن أخدم لخلاص نفسك؟ إذا ما فعلتُ ذلك فسأكون قاتلًا، قاتلًا روحيًّا، غير مستحقٍّ للثقة التي وضعها فيّ الربُّ، ولا لنعمة البطرشيل الممنوحة لي. لذلك، لا أعرفُ أيَّ قانون صلاةٍ يجب أن أعطيك. ولكن، انتبهوا، كثيرًا ما نُجرَّب من الناحية النفسيَّة عندما نظنُّ أنّنا نملك قدرةً أكبر ممّا يراه فينا الأب الروحيُّ وما يقوله لنا. يطلب منك الأب مثلًا أن تصنع اثنتي عشرة سجدة، لكنَّك تعترض قائلًا: "ولكنْ، يا أبانا، لا تكفي اثنتا عشرة سجدة. دعني أصنع خمسمئة!".

"يا بنيَّ، اعمل اثنتي عشرة سجدة في اليوم! وإذا واصلتَ القيام بها يوميًّا، عندها أنا نفسي سأقول لك، أو بالأحرى، الروح القدس نفسه سيقول لك: اصنعْ ثلاثًا وثلاثين سجدة! أو اصنع مئة!".

علينا أن نتصرّف دائمًا ببركة الشيخ، أبينا الروحيّ، وليس بناءً على تمييزنا نحن، لأنّنا نؤذي أنفسنا أحيانًا بمحاولتنا المغالاة بالأعمال. قد نؤذي أنفسنا بهذه الطريقة، ثمّ نحاول القيام بالأعمال النسكيّة ونحن بصحّةٍ سيّئة! يجب أن نكون شديدي الانتباه - علينا أن نكتشف قدرتنا. ما المسافة التي نستطيع أن نركضها؟ مئة متر؟ فلنركُض هذه المسافة! إذا كنّا نستطيع أن نركض ألف متر، فلنركضْ تلك المسافة! أنستطيع أن نركض ماراثون؟ فلنفعل ذلك! ولكنْ علينا أن نكتشف قدرتنا. علينا أن نناقش الموضوع مع أبينا الروحيّ، ثمَّ نقوم بكلّ ما اتّفقنا عليه. يجب ألّا يسارع المرء إلى القول إنَّه قادرٌ على عمل أربعمئة سجدة ثمَّ يقول لاحقًا: "آه، لا أستطيع أن أصنع 400 سجدة اليوم! إنّني متعَب!".

لماذا طلبتَ بركةً من أبيك الروحيّ إذًا للقيام بأربعمئة سجدة ولم تسمح له بمساعدتك؟

بماذا أنصحكم أن تفعلوا كلّ يومٍ لكي تُعاينوا الله؟ بأن تحفظوا الأصوام التي وضعتها كنيستنا على سبيل المثال. إذا حذّرَنا الطبيب قائلًا: "انتبه! لا تأكل البيض لأنّه سيرفع مستوى الكوليسترول لديك!"، فإنّنا نقول: "هذا ما قاله لي الطبيب!". ثمَّ ينزل ملاك الربِّ من السماء ويقول لنا: "كُلْ بيضة الفصح هذه أيُّها المسيحيّ، فاليوم هو عيد القيامة! كُلْ بيضةً واحدةً فقط!"، فنعترض قائلين: "لا، لا! طلب منّي الطبيب ألا آكل بيضًا، فهو يرفع مستوى الكوليسترول لديّ!".

أتبع رأي طبيب عائلتي، لكنّني لا أُصغي إلى طبيبي الروحيّ. لا أُصغي إلى الله الذي وضع الصوم من أجلنا. نحن نعتبر الصوم أمرًا غير ذا أهمّيّة، لكنّه مهمٌّ حقًّا. كان الصوم وصيّة الربِّ الأولى للجنس البشريّ. عليكم أن تتذكَّروا ذلك دومًا. قال الربُّ للمجبولَين أوَّلًا في الفردوس: "وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها، لأنّكَ يومَ تأكلُ منها موتًا تموت" (تكوين 2: 17).

ما هذا؟ أليس صومًا؟

ثمَّ عليكم أن تقرؤوا الكتاب المقدَّس. يا لشقائنا نحن الأرثوذكسيّين الذين نملك الإيمان الحقَّ، لأنّنا لا نقرأ الكتاب المقدَّس كثيرًا! يا للخزي! كيف يمكننا أن نصبح حكماء ونقتبل كلمة المسيح، بل والمسيحَ نفسَه، إذا كنّا لا نعلم ما الذي قاله لنا؟ عندما ألتقي بأشخاصٍ من شهود يهوه أو الخمسينيّين، أنظر إليهم وغالبًا ما أنوح على نفسي. إنّهم يعيشون في وهمٍ روحيٍّ، ومع ذلك، فهُم يدرسون الكتاب المقدَّس. ستقولون لي إنَّهم يدرسونه كالببّغاوات... حسنًا، يجب عليك أنتَ أيضًا، يا أخي الأرثوذكسيّ، أن تدرس الكتاب المقدَّس كالببّغاء، وسترى كم هو رائع!

إلى جانب الكتاب المقدَّس، علينا أن نقرأ كتابات آباء الكنيسة، لأنَّها استكمالٌ للكتاب المقدَّس. فالروح القدس عينه الذي أنار الرسل القدّيسين ليكتبوا النصوص الإنجيليّة قد أنار أيضًا آباء الكنيسة ليُفسِّروها. علينا قراءة الكتابات الآبائيّة كثيرًا. وبقيامنا بذلك، نُزيلُ أيَّ سوء فهمٍ مُحتمَلٍ متبقٍّ لدينا بعد قراءة الكتاب المقدّس، بما أنّ الآباء يقدِّمون تحليلًا عميقًا للإنجيل في الروح القدس.

إنَّ سيَر القدّيسين هي أيضًا استكمالٌ للكتاب المقدّس، فالقدّيسون أناجيل حيَّة. نُذهَلُ بمجرّد قراءة سيَر حياتهم. تقرؤون كيف صام أحد القدّيسين وتقولون لأنفسكم: "وأنا أيضًا سأصوم مثله!". تقرؤون عن قدّيسٍ

آخر كان يجاهد بالسهرانيّات، حارمًا نفسه من النوم، وتقولون لأنفسكم: "سأكون مثل هذا القدّيس. سأقوم بسهرانيّاتٍ في الليل".

تقرؤون في سيرة حياة قدّيس ثالثٍ كيف احتملَ صليبَ الاستشهاد وتقولون: "وأنا أيضًا سأحمل صليب الاستشهاد مثل هذا القدّيس".

تقرؤون في سيرة حياة قدّيسٍ رابعٍ حول رحمته وتقولون: "وأنا أيضًا سأترك لِمَن لي عليه، محبَّةً بالله".

يضع القدّيسون كلَّ ما يُعلِّمنا إيّاه الإنجيل قيد التطبيق. لذلك، عندما نقرأ سيَر القدّيسين، نرى الإنجيل حيًّا. إذا أمكنكم، اقرؤوا السنكسار وسيَر القدّيسين يوميًّا. حتّى لو لم تفعلوا شيئًا آخر - أي إن لم تُصلّوا أو تسهروا أو تُصلّوا بالمسبحة أو تقرؤوا الكتاب المقدَّس، إن قرأتُم سيرة أحد القدّيسين، سترَون كيف سيبقى قلبكم "رقيقًا" طيلة اليوم. أمّا أفكاركم فستبقى "مرتبطةً" بالله وبمحبّة الله. لن يتَّسع منظوركم الروحيّ بمجمله فحسب، بل وأيضًا سيحلُّ محلَّ مشكلات الحياة سموٌّ في نفوسكم وقوّةٌ ستتلقّونها من خلال قراءة سيَر القدّيسين.

ويجب عليَّ التحدُّث عن الاشتراك في الأسرار المقدّسة. إذا أردنا عيش حياةٍ روحيّة، علينا الاشتراك في الأسرار المقدّسة ببركة الأب الروحيّ. هو سيَشرح لنا كيف نشترك في القُدسات وكيف نأخذ مسحة الزيت المقدَّس والماء المقدَّس وما إلى ذلك. علينا الحصول على بركة الأب الروحيّ ورأيه في هذا الخصوص. إذا فعلنا ذلك بأنفسنا، قد تصبح [الأسرار] سمًّا بدلًا من أن تكون دواءً خلاصيًّا.

وثمّة أمرٌ آخر هو ذكر الموت. إنَّ عصرنا هو الأصعب فيما يتعلَّق بالموت. يمكننا أن نخرج ونستمتع بلا اكتراث، ويبقى البعض خارج منازلهم حتّى الفجر، ويغفون خلف مقود سيّارتهم، فيقع حادثٌ مروريٌّ يُسحَقون على إثره. ثمَّ يلاحقنا الموت. ينقطع سلكٌ كهربائيٌّ ويسقط علينا ونموت. يُصادفنا مدمنٌ على المخدِّرات في الشارع، ويسحب سكّينًا ويقتلنا. نسمع يوميًّا بأمورٍ لم تكن مألوفةً قبلًا. يُحدق بنا خطرٌ جسيمٌ على نحوٍ دائمٍ، ومع ذلك، ليس لدينا ذكرٌ للموت. يجب أن نتذكّر الموت، ولكنْ ليس ذاك التذكّر الذي يكبِّلُنا ويُكدِّر قلبنا؛ هذا ليس ذكر الموت، بل الذكرى الشيطانيّة للموت.

يجب أن نتذكّر الموت كما علّمنا المسيح، ونفكّر في أنّنا من هذا العالم، من هذا العالم الزائل؛ يجب أن نفكّر كيف أنَّ المسيح سيدعونا في تلك اللحظة وتلك الساعة لنمثُلَ أمام كرسيّ دينونته، وكيف سنقِفُ أمامه. إذا حافظنا على ذكر الموت، فسنبقى دومًا حاملين في قلوبنا ما قاله النبيّ داود: "كنتُ أرى الربَّ أمامي في كلّ حين، أنّه عن يميني، لكي لا أتزعزع" (أعمال 2: 25). بتعبيرٍ آخر، عندما أُدركُ بشكلٍ دائمٍ أنّني في حضرة الله، فلن أرتكب خطيئة. هذه نصيحةٌ مهمّةٌ في حياتنا الروحيّة - أن يكون لدينا ذكر الموت، ولكن من دون أن يسحَق أرواحنا. إنّ المسيحيّ لا يخشى الموت، بل يراه على حقيقته؛ بعد قيامة المسيح لم نعُد نخاف الموت. هذا ما يجب أن نسعى إليه - ألّا نخشى الموت مطلقًا، بل أن نحبّه، كما يقول القديّس أنطونيوس.

فلنتكلّمْ على الصلاة غير المُنقطعة. إذا لم يكن القابس الكهربائي في المَقبِس، فلن يعمل التلفاز. هذا مستحيل. ينطبق الأمر عينه على تلفازنا الروحيّ - لا يمكن لحياتنا الروحيّة أن تنمو ما لم يوضع القابس في مَقبِس نعمة ربّنا الإلهيّة، وهي ما ندعوها بالمَقبِس السماويّ، حيث تكون الصلاة القابس. من دونها لا يحدث شيء.

وذكرتُ تفاصيل دقيقةً أخرى، مثل تقديم التنازلات في عائلاتنا وتفاعلاتنا اليوميّة بدلًا من ضرب الأرض بأرجلنا والقول: "لا! أنا المحقّ".

علينا أن نتنازل دومًا أمام الآخر. فعندما نتواضع أمام أخينا أو شريك حياتنا أو ولدنا، تعود إلينا نعمة الله، نعمة تواضعنا وتنازلاتنا.

أتذكّر شيخًا اسمه أغلايوس من دير كونستامونيتو. كان طاعنًا في السنّ - عمره ستّةٌ وثمانون عامًا. في أحد الأيّام، أحضرتُ إليه حطبًا لموقده. فجاء إليّ وقال لي:

- أيّها الشيخ أثناسيوس، دعني أقولُ لك شيئًا!

- كُلّي آذانٌ صاغية!

- لمَ نالَ موسى من الله مثل هذه النعمة العظيمة؟

- لأنّه كان عليه أن يُخرج الإسرائيليّين من مصر ويقودهم إلى إسرائيل.

- كلّا، بل لأنّه تواضعَ أمام الله. تذكّرْ أنّه عندما دعاه الله ليكون قائد الإسرائيليّين في خروجهم من مصر إلى أرض كنعان، قال له موسى: "يا ربُّ، لا تختر ني أنا، لأنّني ثقيل اللسان. اخترْ أخي هارون. يجب أن تختاره ليكون القائد في هذا الخروج لأنّه يملك موهبة الكلام". غير أنّ الله وبّخ موسى قائلًا: "لا. روحي يحلّ عليك".

وكرّر الشيخ قائلًا: "لأنّه أظهر تواضعًا".

يجب أن نكون حذرين عندما نعترف بأنَّ شخصًا آخر هو أهمُّ منَّا، وإلّا فقد ينتقل هذا الاستعلاء إلينا. نحن نُكرّم أنفسنا ونضع ذواتنا في منزلةٍ أعلى من الآخرين. تذكّروا دائمًا هذا الأمر. ولا تفترضوا أنَّنا نُحقّق شيئًا حين نُطالب بحقوقنا. ربّما نعذر أنفسنا ونهدّئ من روعِنا على الصعيد النفسيّ، لكنّنا نخسر روحيًّا. لذلك، فلتتحقّقْ إرادة زوجتكم أو ولدكم – طبعًا عندما لا تتعارض مع مشيئة الله. كُونوا متيقّظين أو ستُفسِدوا الأمور. مثلًا، تقول زوجةٌ لزوجها: "ضعِ الكوب هنا"، لكنَّ الزوج يأخذ الكوب ويضعه في مكانٍ آخر، فتقول له: "لا تضع الكوب هناك، بل ضعهُ حيث أخبرتك!". أو تقول له: "المزهريّة مليئةٌ بالقرنفل الأحمر، وليس فيها قرنفلٌ أبيض، لذا لا تشتري لي أيّ قرنفل أحمر!".

عظيم، وما الذي سيحدث بعد ذلك؟ إذا لم تشتر القرنفل الأحمر أو تضع ذلك الكوب في ذاك المكان، هل سيزول العالم؟ هل تستحقّ هذه الأمور البسيطة أن نُخرِّب علاقتنا بسببها؟ إذا أَهنَّا قريبَنا، هل سنكون قادرين على الصلاة بسلام؟ هل سنكون قادرين على قراءة الكتابات الروحيّة بأمان؟ أو على النموّ في الحياة الروحيّة؟ هل سيعمل الروح القدس فينا؟ لا. يستحيل ذلك.

يتبع…

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Hieromonk Athanasios of Simonopetra (n.d.). “The Lord Loves You Far More than You Love Yourself.” In *OrthoChristian*.